وبعد تسليم مذكرة وزير الخارجية البريطانية الى الحكومتين، الفرنسية والروسية، للدخول في مباحثات تمهيدية مع المسؤولين حول عدد من المواضيع، أوفدت الحكومة البريطانية سايكس الى كل من فرنسا وروسيا لهذا الغرض.

اختار سايكس زيارة روسيا اولاً، لاعتقاده بأن وجود مشكلة يهودية في روسيا قد يشجّع الحكومة الروسية على تأييد الاقتراح البريطاني حول مستقبل فلسطين، كوسيلة الى حل مشكلتها اليهودية، وهي النقطة التي ركّز عليها المفاوض البريطاني، سايكس، في محادثاته مع نظيره الروسي، وحصل، فعلاً، على الموافقة الروسية. وفي باريس، أبرز سايكس، في محادثاته مع نظيره الفرنسي جورج بيكو، نقطتين اساسيتين، هما الدور الهامّ والمؤثر الذي يمكن ان يلعبه يهود اميركا لادخال الولايات المتحدة في الحرب اذا أمكن كسب تأييدهم لقضية الحلفاء، والنقطة الاخرى ان هذا التأييد المطلوب لا يمكن ان يأتي بغير اصدار تعهّد لليهود بوضع فلسطين، بعد الحرب، تحت ادارة مؤيدة للصهيونية، أي بريطانيا.

ومع ان المفاوض الفرنسي اتفق في الرأي حول النقطة الاولى مع نظيره البريطاني، الاّ انه احجم عن البتّ بالنقطة الثانية، نظراً الى وجود تيار سياسي قوي داخل الحكومة الفرنسية يطالب بوضع سوريا الكبرى، بما فيها فلسطين، تحت النفوذ الفرنسي، بعد الحرب.

وفي النهاية، اختتمت المباحثات بين الدول الثلاث، في العام ١٩١٦، بعقد اتفاقية سايكس ـ بيكو السرية. وعلى الرغم من ان هذه الاتفاقية لم تحقق أمل الصهيونيين بوضع فلسطين تحت الادارة البريطانية الموالية للصهيونية، اذ تمّ الاتفاق بين الدول الثلاث على وضعها تحت ادارة دولية، غير انهم رأوا فيها حسنات أخرى. فلقد نقضت الوعود المقطوعة للعرب، وبذلك ازالت مخاوف الصهيونيين من قيام حكم عربي فلسطيني؛ كما انها اعطتهم وقتاً كافياً للعمل على تغيير الوضع لمصلحتهم، واغتصاب فلسطين للصهيونية، في النهاية.

في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٦، استقبل سايكس شخصاً يدعى جيمس مالكولم، وهو بريطاني الجنسية أرمني الأصل، تربطه بالصهيونية روابط وثيقة منذ عدة سنوات، بناء على طلب الاخير. قال مالكولم ان احد اقطاب الصهيونية في الولايات المتحدة الاميركية، وهو القاضي براندیس، مستشار الرئيس ويلسون وصديقه وموضع ثقته، من المحتمل ان يقنع الرئيس الاميركي بضرورة الاشتراك في الحرب، الى جانب بريطانيا وحلفائها، اذا وافقت الحكومة البريطانية على الدخول في مفاوضات مباشرة مع المنظمة الصهيونية، الأمر الذي حضّ مجلس الوزراء البريطاني على مناقشة العرض الصهيوني في جلسات عدة، ثمّ الموافقة عليه في النهاية.

بعد ان أُعلم الصهيونيون بموافقة الحكومة البريطانية، طلبوا السماح لهم باستعمال وسائل الاتصالات الحكومية ليتسنّى لهم الاتصال بالمنظمات الصهيونية في الاقطار الاخرى، دون ابطاء أو تأخير، فأبدت الحكومة موافقتها على طلب يبدو بسيطاً ومفيداً للمجهود الحربي.

وبعد ان نشرت الصهيونية، في جميع أنحاء العالم، خبر الالتزام البريطاني الكامل، وبدون حدود، القضية الصهيونية، وأهدافها، شعر البريطانيون بحماقتهم وسذاجتهم أمام المكر اليهودي، ولكن التراجع عن القرار لم يعد ممكناً خشية اثارة غضب اليهود عليهم.

قبل بدء المفاوضات البريطانية ـ الصهيونية، قدّمت الصهيونية مذكرة بعنوان «برنامج